فضائل وآثار

الآثار الباقية للعلوم النافعة

أ. د. عبد الكريم بن عيسى الرحيلي
أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية، بالمدينة المنورة

هذه المحاضرة ألقاها – عن بعد- فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور عبد الكريم بن عيسى الرحيلي، أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية، بالمدينة المنورة في قاعة المحاضرات بالجامعة السلفية، بنارس، الهند يوم الخميس بعد صلاة العشاء ٢٤/ ٨/ ٢٠٢٣م لرفع المستوى العلمي لطلاب الجامعة السلفية.

قال ربنا جل وعلا ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ (الحج: ٧٧) وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ البقرة: ١٤٨)، قال الإمام أحمد رحمه الله: "كل شيء من الخير يبادر به" (مناقب الإمام أحمد: ٢٦٩) "فإن استعطت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل"، ومن المسابقة والمبادرة إلى الخيرات أن تجعل كل أثرًا بعد موتك يستمر إلى يوم القيامة.

عباد الله! إن أفضل شيء للمرء بعد موته هو أن يخلّف له من يذكره في كل لحظة دون انقطاع، إن استمرار الثواب للعبد من أفضل الأعمال، ولا يعلم على مرّ الزمان أفضل من نشر العلم والاهتمام به، قال الشربيني رحمه الله: "وقد تظاهرت الآيات والأخبار والآثار وتواترت وتطابقت الدلائل الصريحة وتوافقت على فضيلة العلم والحث على تحصيله والاجتهاد في اقتباسه وتعليمه"(مغني المحتاج: ١/ ٩٧) ثم ذكر الأدلة على فضل العلم.

عباد الله! حث النبي ﷺ على الاهتمام العلم ونشره، فقال: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله"(صحيح مسلم: ١٦٣١) وفي رواية "وإن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته" وفي رواية "يلحقه من بعد موته" ثم ذكر منها العلم: فقال: "إلا من علم ينتفع به" وفي رواية "علّمه ونشره" وفي رواية "أو علم يعمل به من بعده" ففي قوله ﷺ: "إلا من علم ينتفع به" قال السيوطي رحمه الله: "هو ما خلّفه من تعليم أو تصنيف ورواية ولكن شرطه أن يكون منتفعًا به"(حاشية السيوطي على سنن النسائي: ٦/ ٢٥٢)، "لأن ما لا ينتفع به لا يثمر أجرًا" "ويدخل في النفع من ألّف علما نافعا أو نشره فبقي من يرويه عنه وينتفع به، أو كتب علما نافعا أو أوقف كتبا فإنه يجري أجرها بعد الموت ويتجدد ثوابها".

عباد الله! إن من أفضل السنن العلم، عن جرير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "من سنّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء" رواه الإمام مسلم(صحيح مسلم: ١٠١٧).

قال ابن كثير رحمه الله: "أي ما سنوا من سنة، فعمل بها قوم من بعد موتهم، فإن كان خيرًا فله مثل أجورهم"(تفسير ابن كثير: ٦/ ٥٠٢)، وللهيتمي عبارة رائعة لمّا ذكر هذا الحديث قال رحمه الله "بشرى عظيمة لمن نسخ علمًا نافعًا، وهي أنه يكون له أجره وأجر من قرأه أو نسخه أو عمل به من بعده ما بقي خطّه والعمل به"(الزواجر عن اقتراف الكبائر: ١/ ١٦٢).

عباد الله! أثر العلم يبقى بعد الممات، قال الله جل وعلا ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ﴾ (يس: ١٢) قال قتادة رحمه الله: "فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله، فليفعل".

وقال القرطبي رحمه الله: "فآثار

المرء التي تبقى وتذكر بعده من خير أو شر يجازى عليها: من أثر حسن، كعلم علّموه، أو كتاب صنفوه، أو حبيس احتبسوه، أو بناء بنوه من مسجد أو نحو ذلك"(تفسير القرطبي: ١٥/ ١٢)، وقال ابن كثير رحمه الله "والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضًا من سعيه وعمله"(تفسير ابن كثير: ٧/ ٤٣٢).

عباد الله! الإنسان ينقطع ذكره بعد قرن من الزمان في غالب الأحوال فلن يذكر بل ينسى: وأقرب مثال لك انظر إلى الأقربين منك من أجدادك وغيرهم اندثروا وانقطعت عنهم الأعمال لا نعرف عنهم شيئًا، أنت كذلك سينقطع ذكرك بعد فترة من الزمان، إن لم تعمل وتسعى في العلم ونشره، فستندم على التفريط؛ وستنسى كغيرك، قال النبي ﷺ : "من علم علمًا فله أجر ذلك ما عمل به عامل لا ينقص من أجر العامل شيء" رواه ابن ماجة (٢٤٠) وحسنه الألباني. قال القرطبي رحمه الله: "ثواب العلم والهدى لا ينقطع إلى يوم القيامة". وقال المناوي رحمه الله: "فإن ثواب عمله الذي قدمه في حياته ينمو له إلى يوم القيامة".

عباد الله! أفضل الدلالة دلالة العلم: عن أبي مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "من دل على خير فله مثل أجر فاعله" رواه مسلم(١٨٩٣).

قال الصنعاني رحمه الله: "دلّ الحديث على أن الدلالة على الخير يؤجر بها الدال عليه كأجر فاعل الخير وتكون بالإشارة على الغير بفعل الخير"(سبل السلام: ٢/ ٦٣٩).

وقال المباركفوري رحمه الله: "من دلّ: أي بالقول أو الفعل أو الإشارة أو الكتابة"(تحفة الأحوذي: ٧/ ٣٦٢).

ومن دلالات الإشارة بفعل الخير، ما أشار به عمر إلى أبي بكر بجمع القرآن فاستحسن ذلك وأمر زيدًا بجمعه رضي الله عنهم كما جاء ذلك في الصحيح، وهذه من أعظم المفاخر وأفضل المناقب وأجلّ الأعمال

لأصحاب النبي ﷺ إلى يوم القيامة، وقد علق ابن حجر رحمه الله على قصة جمع القرآن في عهد الصديق رضي الله عنه بقوله: "وإذا تأمل المنصف ما فعله أبو بكر من ذلك جزم بأنه يعد في فضائله وينوه بعظيم منقبته لثبوت قوله ﷺ: "من سنّ سنةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها" فما جمع القرآن أحد بعده إلا وكان له مثل أجره إلى يوم القيامة"(فتح الباري: ٩/ ١٣)، ولهذه الدولة المباركة قصب السبق في هذه العصور المتأخرة في طباعة القرآن الكريم فجزاهم الله خيرًا في الدنيا والآخرة.

وينطبق على هؤلاء جميعًا الحديث الذي جوّد إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة "من علّم آية من كتاب الله عز وجل؛ كان له ثوابها ما تليت".

ومن الإشارات المباركة ما ذكره البخاري، قال: "كنا عند إسحاق بن راهويه فقال: لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة النبي ﷺ، قال البخاري: فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع الجامع الصحيح".

كلمة خرجت من إسحاق رحمه الله نال بها الأجر العظيم، وللبخاري قصب السبق في هذا العمل؛ لأنه تسبب في إخراجه للناس، وكذا من نسخه وطبعه ونشره للأمة من تلك العصور إلى وقتنا المعاصر، بل إن الخير يصل أيضًا لرجال السند، قال ابن جماعة رحمه الله: "وبعض أهل العلم يدعون لكل من يذكر عنه شيء في العلم وربما يقرأ بعضهم الحديث بسنده فيدعو لجميع رجال السند، فسبحان من اختص من شاء من عباده بما شاء من جزيل عطائه"(تذكرة السامع والمتكلم: ص ٦٤) ولمّا ترجم ابن كثير رحمه الله للبخاري قال: "وقد ترك رحمه الله بعده علمًا نافعًا لجميع المسلمين، فعمله فيه لم ينقطع بل هو موصول بما أسداه من الصالحات في الحياة"(البداية والنهاية: ١١/ ٢٧) ومثل البخاري رحمه الله أعلام هذه

الأمة على مرّ الزمان، كعلماء التفسير والحديث واللغة والفقه والتاريخ وغيرهم، فقد مضى على موتهم مئات السنين، وما زالوا أحياءً إلى هذه الساعة.

ومن الإشارات المباركة إنشاء هذه الجامعة المباركة وما خرج منها من الخير للأمة الإسلامية، من الذي سعى في إنشائها؟ خيرات تتوالى عليهم في قبورهم على مرّ الليالي والساعات، لأنهم تسببوا في إنشائها.

عباد الله! نقف مع درر من آثار العلماء في أهمية العلم ونشره: قال عمر رضي الله عنه قال: "تعلموا العلم وعلموه الناس"، وقال علي رضي الله عنه: "والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة" وقال عطاء رحمه الله: "أوثق أعمالي في نفسي نشر العلم" وقال سفيان الثوري: "لا أعلم من العبادة شيئا أفضل من أن تعلم الناس العلم" وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: "لا أعلم بعد النبوة درجة أفضل من بث العلم" وقال عبد الله بن المعتزّ رحمه الله: "علم الإنسان ولده المخلد" وقال أيضًا: "ما مات من أحيا علمًا". وقال ابن الجوزي رحمه الله: "ومن أحب ألا ينقطع عمله بعد موته فلينشر العلم بالتدوين والتعليم"(التذكرة: ص ٥٥).

وقال ابن القيم رحمه الله: "فإن العالم إذا زرع علمه عند غيره ثم مات جرى عليه أجره، وبقي له ذكره، وهو عمر ثان وحياة أخرى"(مفتاح السعادة: ١/ ١٤٨)، وقال أيضًا: "والأحاديث في هذا كثيرة وقد ذكرنا مائتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب أفردناه، فيا لها من مرتبة ما أعلاها ومنقبة ما أجلها وأسناها أن يكون المرء في حياته مشغولا ببعض أشغاله أو في قبره قد صار أشلاء متمزقة وأوصالا متفرقة، وهو في هذه الحالة فإن صحف حسناته متزايدة، تملئ فيها الحسنات في كل وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا

يحتسب، تلك والله المكارم والغنائم وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تنفق الأنفاس عليه"(طريق الهجرتين: ص ٣٥٣)، ولمّا مات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، قال تلميذه ابن مرّي الحنبلي في وصيته بجمع كتبه، قال رحمه الله: "ووالله إن شاء الله ليقيمن الله لنصر هذا الكلام ونشره وتدوينه وتفهمه واستخراج مقاصده واستحسان عجائبه وغرائبه، رجالًا هم إلى الآن في أصلاب آبائهم" (المداخل إلى آثار شيخ الإسلام ابن تيمية:ص ١٠٠). وقد تحقق ذلك بفضل الله وحده؛ فاشتغل العلماء بها، وبتحقيقها، وبإخراجها للناس.

قال إبراهيم النخعي في قوله تعالى ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال: "بلغني أنه إذا كان يوم القيامة يجاء بعمل الرجل فيوضع في كفة ميزانه يوم القيامة فتخف فيجاء بشيء أمثال الغمام أو قال: مثل السحاب، فيوضع في كفة ميزانه فيرجح فيقال له: أتدري ما هذا؟ فيقول: لا، فيقال: هذا علمك الذي علّمته للناس فعملوا به وعلّموه من بعدك"(جامع بيان العلم وفضله: ١/ ٢١٠)، وقال جمال الدين الشافعي رحمه الله: "ولم يمت من خلف علما نافعا ولا كان سعيه بذلك ضائعا بل حسناته متزايدة وإن كان رميما وأجره مضاعف، وإن كان شخصه معدوما" قال يحيى بن أكثم رحمه الله: "قال لي الرشيد: ما أنبل المراتب؟ قلت: ما أنت فيه يا أمير المؤمنين. قال: فتعرف أجلّ مني؟ قلت: لا، قال: لكني أعرفه: رجل في حلقة يقول: حدثنا فلان بن فلان قال: قال رسول الله ﷺ قال: قلت: يا أمير المؤمنين هذا خير منك، وأنت ابن عمّ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم: ويلك، هذا خير مني، لأن اسمه مقترن باسم رسول الله ﷺ، لا يموت أبدًا. نحن نموت ونفنى، والعلماء باقون ما بقي الدهر" (أدب الإملاء

والاستملاء: ص٤٠) وصدق الله ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (المجادلة: ١١)قال الشوكاني رحمه الله: "أي: ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا والثواب في الآخرة، وفي هذه الآية فضيلة عظيمة للعلم وأهله" (فتح القدير: ٥/ ٢٢٦).

قال الشيخ العثيمين رحمه الله: "ولا شك أن طلب العلم من أفضل الاعمال، بل قد قال الإمام أحمد رحمه الله: العلم لا يعدله شيء لمن صحت نيته (شرح حلية طالب العلم: ١/ ٧).

جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا" رواه مسلم (٢٦٧٤). قال ابن عبد البر: "هذا أبلغ شيء في فضل تعليم العلم والدعاء إليه". (تنوير الحوالك: ١/ ١٧٠) وقال عمر رضي الله عنه: "من حدّث بحديث فعمل به فله به فله مثل أجر ذلك العمل".

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: "سبع يجري للعبد أجرهن بعد موته وهو في قبره: من علّم علمًا، أو أكرى نهرًا، أو حفر بئرًا، أو غرس نخلًا، أو بنى مسجدًا، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته، أو ورّث مصحفا" (رواه البزار وحسنه الألباني).

فيا حسنها من كرامة يتضاعف أجرها إلى يوم القيامة، ويا لها من ولاية ليس لها نهاية.

العلم فبه مهابة فتدبر
والعلم أنفع من كنوز الجوهر
تفنى الكنوز على الزمان وصرفه
والعلم يبقى مع بقاء الأعصر

وقال آخر:

أخو العلم حي خالد بعد موته
وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى
يظن من الأحياء وهو عديم

عن محمد بن عبد الأعلى قال: سمعت معتمر بن سليمان يقول: كتب إلي أبي، وأنا بالكوفة: "يا بني اشتر الورق واكتب الحديث؛ فإن العلم يبقى والدنانير تذهب".

فإن المال يفنى عن قريب
وإن العلم يبقى لا يزال

قال الشيخ السعدي رحمه الله: "وإذا انقطعت الأعمال بالموت، وطويت صحيفة العبد فأهل العلم حسناتهم تتزايد كلما انتفع بإرشادهم، واهتدِي بأقوالهم وأفعالهم، فحقيق بالعاقل الموفق أن ينفق فيه نفائس أوقاته، وجواهر عمره، وأن يعده ليوم فقره وفاقته". (الفتاوى السعدية: ١/ ١١٣)

عباد الله! هنيئًا لمن أوقف الكتب للمدارس والمعاهد في البلاد الإسلامية، التي يشرف عليها طلبةُ الجامعة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

***

عامة فساد الأولاد من قبل الآباء

قال ابن القيم رحمه الله:

«وكم ممن أشْقَى ولدَه وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه، وإعانته له على شهواته. ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده، وفوَّت عليه حظَّه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرتَ الفساد في الأولاد رأيتَ عامَّتَه من قِبَلِ الآباء»

(تحفة المودود بأحكام المولود، ص٣٥١)